مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٢٠٠٦/١١

الأحد ١٢ آذار

الأحد الأول من الصوم

أحد الأرثوذكسية

تذكار أبينا البار ثاوفانس المعترف

اللحن الخامس

إنجيل السَحَر الخامس

الرسالة

(عبرانيين ١١:٢٤– ٢٦، ٣٢ –٣٩)

يا إخوةُ بالإيمان موسى لمَّا كَبُرَ أبى أن يُدعى ابنًا لابنةِ فِرعون* مُختارًا الشَّقاء مَعَ شعبِ اللهِ على التمتُّع الوقتيّ بالخطيئة* ومُعتَبِرًا عارَ المسيح غِنًى أعظمَ من كُنوزِ مِصر. لأنَّهُ نَظَرَ إلى الثواب* وماذا أقولُ أيضًا. إنَّهُ يَضيقُ بي الوقتُ إن أخبرتُ عن جدعونَ وباراقَ وشمشونَ ويفتاحَ وداودَ وصموئيلَ والأنبياءِ* الذين بالإيمانِ قَهَروا الممالكَ وعمِلُوا البِرَّ ونالوا المواعِدَ وسَدُّوا أفواهَ الأسود* وأطفأُوا حِدَّةَ النارِ ونَجَوْا مِن حَدِّ السيفِ وتَقَوَّوْا مِن ضُعفٍ وصاروا أشِدَّاءَ في الحربِ وكَسَروا معسكراتِ الأجانب* وأخذت نِساءٌ أمواتَهُنَّ بالقيامةِ وعُذِّبَ آخرونَ بتوتيرِ الأعضاءِ والضربِ ولم يقبلوا بالنجاةِ ليَحصلوا على قيامةٍ أفضل* وآخرونَ ذاقوا الهُزءَ والجَلْدَ والقيودَ أيضًا والسِّجنَ* ورُجِموا ونُشِروا وامتُحنوا وماتوا بحدِّ السيف. وساحوا في

تعال وانظر

يتساءل عدد من المسيحيين اليوم أين هو الله وأين هو المسيح؟ جوابنا هو كجواب فيلبس لنثنائيل: من يبحث حقاً عن الله ويسعى جاهداً ليتعرَّف عليه يسمع النداء: «تعال وانظر» (يو ١:٤٦).

لقاء الله ليس بالأمر المستحيل لا بل هو الهدف الذي خُلق الإنسان من أجله، وجُلّ ما فعله الله مع البشرية عبر التاريخ هو من أجل جعل إمكانية هذا اللقاء أكبر.

يبقى السؤال المطروح: لماذا يصل بعض الناس إلى معاينة الله والاتحاد به بينما يبقى البعض الآخر على مسافة بعيدة من الله أو حتى لا يؤمنون بوجوده؟

المشكلة والحل نجدهما معاً في حرية الإنسان. فالله الذي خلق الإنسان حراً لا يلغي حرية الشخص في اتخاذ قراراته، حتى لو تعلَّق الأمر باعتراف الإنسان بوجود الله. لذلك ينتظر الله أن يبادر الإنسان إلى طلبه بملء إرادته ودون أي إكراه حتى يكشف له ذاته. هذا ما حدث مع زكا العشار الذي كان يرغب كثيراً أن يعاين المسيح بالرغم من قصر قامته الذي لم يعتبره عائقاً أمام تحقيق مبتغاه. الله الذي يعرف النوايا ويرى جهاد الإنسان أعطى زكا أكثر بكثير مما طلب. فبعد ان عاين الرب زكا من بعيد على شجرة الجميزة قال له انه سيمكث في بيته وهكذا حصل الخلاص لذلك البيت (لو١٩:١–١٠).

ألم يقل يسوع في العظة على الجبل «من يطلب يجد» (متى ٧:٨)، لا بل أكثر من ذلك، فهو يقول في موضع آخر انه واقف على الباب يقرع وينتظر من يفتح له (رؤ ٣: ٢٠).

لقاء الإنسان مع الله هو خبرة شخصية ليس وصفها بالأمر السهل، لذلك يتصرَّف فيلبس عند لقائه الرب كمن وجد كنزاً لا يوصف. فهو لم يكتفِ بإخبار نثنائيل عنه بل يدعوه للتعرُّف إليه شخصياً. أما نثنائيل فلم يرفض الدعوة رغم تناقض ما سمع عن يسوع مع ما كان قد تعلّمه أن نبياً واحداً لم يخرج قبلاً من الناصرة، بيد انه اتضع ولبّى الدعوة سريعاً و توجه لملاقاة يسوع. وفي أول حديث دار بينهما أظهر له يسوع مباشرة انه كان يعرفه ويراه من قبل أن يلتقيا. من هنا ندرك ان الله يعرفنا ويرانا في كل حين لكنه ينتظر منا التوجه إليه لكي نتعرَّف عليه نحن. والمهم بعد لقاء الرب أن تبقى أنظارنا موجهةً إليه لأننا إن حوّلنا نظرنا عنه

جلودِ غنمٍ ومَعزٍ وهم مُعوزون مُضايقون مَجهودون* (ولم يكن العالمُ مستحقًا لهم). وكانوا تائهين في البراري والجبال والمغاور وكُهوف الأرض. فهؤلاءِ كلُّهم مشهودًا لهم بالإيمانِ لم ينالوا الموعِد* لأنَّ اللهَ سبقَ فنظرَ لنا شيئًا أفضلَ أن لا يكمُلوا بدوننا.

الإنجيل

(يو ١: ٤٤-٥١)

في ذلك الزمان أراد يسوع الخروج إلى الجليل فوجد فيلِبُّسَ فقال لهُ اتبعني* وكان فيلِبُّسُ من بيتَ صيدا من مدينة إندراوسَ وبطرس* فوجد فيلِبُّسُ نَثَنائيلَ فقال لهُ إنَّ الذي كَتَبَ عنه موسى في الناموس والأنبياءِ قد وجدناهُ وهو يسوعُ ابنُ يوسف الذي من الناصرة* فقال لهُ نَثَنَائيلُ أمِنَ الناصرةِ يمكنُ أن يكونَ شيءٌ صالح* فقال لهُ فيلبُّسُ تعالَ وانظرْ* فرأى يسوعُ نَثَنائيلَ مقبلاً إليه فقال عنهُ هوذا إسرائيليٌّ حقًّا لا غِشَّ فيه* فقال لهُ نَثَنائيلُ مِنْ أينَ تعرفني. أجاب يسوعُ وقال لهُ قبل أن يدعُوك فيلِبُّسُ وأنت تحتَ التينةِ رأيتُك* أجابَ نَثَنائيلُ وقال لهُ يا معلّمُ أنت ابنُ اللهِ أنتَ ملكُ إسرائيل*أجابَ يسوعُ وقال لهُ لأنّي قلتُ لك إنّي رأيتُكَ

وارتبكنا بذواتنا أو بالأمور الدنيوية، أو خفنا من رياح الأهواء التي تثور علينا، أو شككنا بقدرة الرب، قد نغرق كما كاد أن يغرق بطرس الرسول حين خاف من شدَّة الرياح وهو يمشي على المياه متوجهاً نحو يسوع (متى ١٤: ٢٢-٣٣).

عملياً كيف يمكن أن يصل ذاك الذي يملك الرغبة الحقيقية إلى معرفة الله؟ في الواقع الرغبة وحدها لا تكفي بل هي تتطلب أن يكون الإنسان مستعداً للتخلّي عن كل شيء في سبيل حبه لله لئلا يصيبه ما أصاب الشاب الغني الذي أراد الحصول على الحياة الأبدية ولم يكن مستعداً للتخلّي عن أملاكه في سبيل اتباع الرب (متى ١٦:١٩-٢٢).

إذاً حين ننمّي شوقنا إلى الله ولا نعود نتعلّق بالأمور الدنيوية، نستطيع تقبُّل الإعلان الإلهي. يبتدئ هذا الإعلان من الخليقة ذاتها، فإن أصغر ذرة فيها وأكبر مجرّة، غرائز الحيوانات وانتظام الكواكب، الأشجار والصخور، كلها تحدّثنا عن عظمة الخالق وقدرته: «لأن أموره غير المنظورة تُرى منذُ خَلق العالَمِ مُدركةً بالمصنوعات قُدرته السرمديَّة ولاهوته حتى إنَّهم بلا عُذر» (رو ١: ٢٠). ويستمر الإعلانُ الإلهي بعد الخلق حين كان الله يكلم الأنبياء في العهد القديم ومن خلالهم الشعب. أما ملء هذا الإعلان فقد تمَّ مع تجسد الكلمة الذي حلَّ بيننا وهو أخبرنا عن الله: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤:٩). وحتى بعد صعود المسيح لم يترك الله البشر بل بقي روحه القدوس يعمل في الكنيسة.

ولأن الكنيسة وعت منذ الابتداء ضعف البشر وتعلّقهم الأرضي بكل ما يوحي بالقوة والديمومة، رتبت من خلال ليتورجيتها جملة من الأسرار والطقوس والصلوات التي من شأنها أن تقرّب المسافة بين الله والبشر. وهي من خلال تعليمها وأيقوناتها وسِيَر قديسيها لا تنفك تهيء الإنسان المخلوق لكي يرقى تدريجياً درجات السلم نحو الله الخالق. وتجدر الاشارة ان التَمَاس الشخصي مع الله يتحقق بشكل أساسي من خلال الصلاة.

أما نحن، وبما أننا أعضاء فاعلون في الكنيسة التي هي جسد المسيح، فعلينا ألا نحوّل نظرنا عن يسوع، فنغدو أيقونات حية يتعرف سائر الناس من خلالها على الله، «أنتم نورُ العالم... فليُضِئ نوركم هكذا قُدَّامَ الناسِ لكي يروا أعمالَكم الحسنةَ ويُمجِّدوا أباكم الذي في السموات» (متى١٤:٥ و١٦).

في هذا السياق يُروى عن القديس أنطونيوس الكبير ان ثلاثة آباء اعتادوا أن يزوروه كل سنة لكي يسترشدوا به، فكان إثنان منهم يسألانه عن الأفكار التي تراودهما وعن خلاص النفس، أما الثالث فكان يصمت ولا يقول شيئاً. بعد سنين عديدة قال له الأب أنطونيوس: «لك زمان تزورني دون أن تسألني شيئاً»، أجاب ذلك الأب: «يكفيني أن أراك يا أبتي».

الإرث الأدبي للقديس سمعان اللاهوتي الحديث

تُعيِّد الكنيسة المقدسة في الثاني عشر من آذار لتذكار القديس سمعان اللاهوتي الحديث. يرسم تلميذُه وكاتبُ سيرتِهِ حياتَه خارطة واضحة لما بلغنا من نشاط أدبي لقديسنا، إن في المراحل أو في المحتوى. فبحسب التلميذ المذكور، بدأ القديس سمعان

تحت التينة آمنتَ. إنَّك ستُعاين أعظمَ من هذا» وقال لهُ الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم إنَّكم مِنَ الآن ترونَ السماءَ مفتوحةً، وملائكةُ الله يصعدون وينزِلون على ابن البشر.

تأمل

يقول مثلٌ شائع إن كل من سعى جدّياً وراء أمر جنى منه فائدة. ويقصدُ الرب أكثر من ذلك عندما يقول: «كل من يطلب يجد» (متى٨:٧). من هنا السؤال لماذا تبع فيلبس المسيح؟ لقد تبعه أندراوس لأنه سمع عنه من يوحنا، وبطرس سمع عنه من أندراوس (يو١:٣٥-٤٢). لكنِ فيلبس لم يسمع شيئاً سوى كلام المسيح «اتبعني» (١:٤٣) فأطاعَ دون تردّد وأصبح كارزاً به أمام الآخرين. فقد ذهب إلى نثنائيل وقال له: «وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء (يو ١:٤٥).

كلمة «وجدنا» تخص الذي يسعى ويطلب باستمرار. «في الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل» ولا يدعو إنساناً قبل أن يسمع هذا الإنسان عنه شيئاً.

يعمل هذا بحكمة كبيرة لأنه لو دعا أحداً دون إرادته لربما ندم هذا الأخير لاحقاً، لكن عندما يختار أحداً بإرادته يبقى هذا الأخير ثابتاً في

نشاطه الأدبي وهو في بدايات حياته الرهبانية، سنة ٩٧٧، وهو بعد في الثامنة والعشرين من العمر. أولى نتاجاته الفكرية كانت بشكل رسائل إرشادية وجهها القديس إلى رهبان يتضح أنهم كانوا يسترشدونه في أمور الحياة الروحية. ومنذ ذلك الحين دلّت الرسائل الأولى على ما كان يتحلّى به القديس سمعان من استنارة «فاق بها من كان لهم سنين في الجهادات الروحية، بل وصار لهم معلّماً»، على ما يروي كاتب السيرة. تجدر الإشارة هنا إلى أن التلميذ المذكور بدأ بكتابة سيرة القديس سمعان سنة ١٠٣٥، أي بعد مرور ١٣ سنة على رقاد القديس، وكانت الرسائل الإرشادية الأولى ما زالت تتداول بين طلاب الحياة الروحية في أكثر من مكان.

هذه كانت بواكير إرث أدبي، لعله هو ما استحق لقديسنا لقب اللاهوتي كثالث ثلاثة بعد يوحنا الحبيب وغريغوريوس النزينزي. بدأ هذا الإرث بالظهور بُعيد انضمام القديس إلى دير القديس ماما، قبل سيامته كاهناً وتالياً قبل انتخابه رئيساً للدير. سنة ٩٧٩، وسمعان بعد في سن الثلاثين، «أطلق الروح لسانه وصار ينطق بكلام البر في وسط كنيسة المسيح» يقول كاتب السيرة. وفي أوائل سني رئاسته، وقبل ثورة الرهبان عليه (راجع السيرة مفصلة في السنكسار أو في نشرة ١٠ تشرين الأول ٢٠٠٤)، كان اللاهوتي الحديث «يتكلم عن الله كمثل التلميذ الحبيب ويمضي الليالي الطوال ينشئ المصنفات اللاهوتية كمثل كبار الآباء». بهذا الكلام يقدم الكاتب وصفاً نوعياً، وليس لمجرد التوقير، لكتابات القديس سمعان، مشبّهاً إياه

بالإنجيلي يوحنا وكبار المعلّمين الذين أنشأوا لاهوت الكنيسة وأرسوا دعائم إيمانها. هذه الكتابات تضمنت، إلى جانب الرسائل الإرشادية التي ما انقطع عنها القديس يوماً، عدداً من النشائد ذات الطابع الصوفي العميق والمواعظ التعليمية المنقسمة إلى ثلاث مجموعات أساسية. هذه كلها، وإن كانت موجهة إلى أناس محددين، أذاعت للقديس سمعان شهرة واسعة الباع وهي شغلت القديس على مدى قارب العشرين سنة.

مجموعات المواعظ التعليمية هي الأكثر ترتيباً في الإطار الزمني. فالمجموعة الأولى نشأت مع تبوؤ القديس كرسي رئاسة الدير، والثانية فيها إشارات إلى أبيه الروحي سمعان التقي بما يدل على وجوده بعد حياً؛ أما المجموعة الأخيرة فتتناول كثيراً حال الرهبان الروحية والنفسية، قبل تمردهم على رئيسهم القديس. ثمَّة دلائل عديدة على أن الكتابات المشار إليها آنفاً، ولا سيما منها المواعظ التعليمية، شهدت على حياة القديس انتشاراً واسعاً جعلته معروفاً من الكل على ما يشهد به كاتب سيرته.

في السنوات الأخيرة لإقامته في دير القديس ماما، مروراً باستقالته من الرئاسة سنة ١٠٠٥ وحتى نفيه إلى الضفة الغربية لنهر البوسفور سنة ١٠٠٩، واصل القديس سمعان اللاهوتي الحديث نشاطه الأدبي وتميَّزت هذه الفترة بمصنف جديد فريد الطابع هو «المقالات النسكية». لعل جهاداته الكبيرة المستمرة، وعبوره بسلام هجمات الأقربين التي استعرت طويلاً عليه، وثّقت اتصال القديس سمعان بنعمة الروح الإلهي وبات يزداد نوراً على نور، فكانت

الطريق.الطريق. دعا إذاً فيلبس إلى جواره لأن هذا الأخير كان يعرفه خصوصاً وأنه ولد وتربى في الجليل. إذاً بعد أندراوس وبطرس دعا فيلبس ونثنائيل. والجدير بالذكر أن خبر يسوع كان قد انتشر في سوريا كلّها. لكن الغريب هنا أن بطرس ويعقوب وفيلبس تبعوا المسيح ليس لأنهم آمنوا به فقط من قبل بل أيضاً لأنه كان من الجليل، من حيث لم يخرج لا نبي ولا أي شيء صالح، من منطقة زراعية قاسية جافة.

من هنا أظهر يسوع قدرته لأنه أخرج تلاميذه المختارين من أرض جدباء. ربما تبعه فيلبس لأنه رأى بطرس وسمع عنه من يوحنا وربما أيضاً لأن صوت يسوع لقي فيه استحساناً فاهتم بالأمر. كل ذلك يأتي الإنجيلي على ذكره باقتضاب. كان يعرف فيلبس ان المسيح سوف يأتي، لكنه كان يجهل ان الذي أمامه هو المسيح عينه، وأعتقد أنه عرف ذلك من بطرس أو يوحنا. «فيلبس وجد نثنائيل»: قال هذا لكي يجعل كرازته موثوقاً بها أكثر، فربطها بموسى والأنبياء، وجعل السامع أكثر اهتماماً بالأمر.

القديس يوحنا الذهبي الفم

مجموعة «المقالات النسكية» التي تشكل حتى اليوم دليلاً للمؤمن المجاهد إلى الفضائل تقابلها الأهواء التي تعوقها. لقد أتت هذه المجموعة ثمرة «فلسفة عملية» ومعرفة إلهية اجتمعتا معاً أدوات للكمال الروحي فصارت، وإن كانت في ظاهرها موجهة إلى الرهبان، خريطة عملية دقيقة المعالم لخفايا النفس البشرية، بأهوائها ووسائل خلاصها.

في كثير من المواضع يحكي القديس سمعان عن النفس البشرية كلاماً يعتبر من أساسيات علم التحليل النفسي الناشئ بعد القديس سمعان بثمانية قرون.

كاتب سيرة القديس سمعان، والذي عايشه لفترة كما أسلفنا، يشهد أن معلّمه القديس كان كالمرأة الحبلى التي لا يسعها إلا أن تلد، يكتب بالقلم ما عاينه بالرؤى. الروح الإلهي المتأجج في قلبه ما كان يترك له راحة حتى يكتب ما يتكشّف له من الإلهيات. شهادة هذا الكاتب تكتسب أهميتها من أن القديس كان يوكل إليه نسخ وترتيب المسودات الأولى، وهو أرسل إليه قرابة العام ١٠٢٠ رسالة يحثه فيها على نشر ما صار مجموعاً لديه من كتابات. هذه المهمة أهملها التلميذ حتى العام ١٠٣٥ «وأنا كنت شاباً لا معرفة لي ولا خبرة»، على ما يشهد الرجل.

في تلك السنة، وبعدما التحق كاتب السيرة بدير استوديون حيث ترهّب القديس سمعان أولاً، شرع بجمع المسودات والمدوّنات المتفرقة التي كانت بحوزته وغيرها من هنا وهناك. ابتدأ يعيد نسخها وتبويبها، شاعراً بيد القديس عليه. في سياق اهتمامه البالغ بتأكيد صدقية المدوّنات المعاد نسخها، يروي الكاتب المذكور رؤيا لتلميذ له اسمه يوحنا. فقد عاين يوحنا هذا القديس سمعان، بعد رقاده، واقفاً بجانب كاتب سيرته وهو منكب على عمله. كان القديس باسطاً يمناه نحو المسودات على الطاولة، محدّثاً كاتب سيرته من القلب إلى القلب مفسراً له أعماق المعاينات الإلهية في الكلمات المكتوبة. تذكرنا هذه الرؤيا برؤيا بروكولوس تلميذ القديس يوحنا الذهبي الفم، الذي عاين الرسول بولس واقفاً قرب معلّمه يشرح له أعماق رسائله. ولعل إصرار كاتب سيرة القديس سمعان على اقتباس رؤيا تلميذه واستعمالها لدعم عمله ضدّ من شككوا آنذاك بصدقية عمله وإلى رغبته في أن يتأكد القارئ من حرصه على عدم المساس، شكلاً أو مضموناً، بما أوكل إليه القديس سمعان.

التحليل الأدبي أو التاريخي، أو مهما كان شكله، لا يفي كتابات القديس سمعان اللاهوتي الحديث حقّها شيئاً. فقديسنا ما كان أديباً احترف الرواية أو أي شكل من أشكال التعبير المكتوب، فناً أو صناعة. اللاهوتي الحديث هو، كسابقيه من آباء الكنيسة والذين أتوا من بعده، محطة من محطات الإعلان الإلهي. كتابات هذا القديس العظيم، الذي اختبر وعاين الحب الإلهي فكتبه، وُضعت لتُقرأ وتُعاش، بساطتها بساطة الإنجيل وعمقها عمق الأسرار الإلهية التي تبقى محجوبة إلا لأنقياء القلوب (متى ٥:٨).

بالامكان الإطلاع على النشرة

أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb